

الطييعح الأجناسيح لسيرة الأميرة ذات الهمة ووظيفتها الإيديولوجية

أ. محمد زاوي

المدرسة العليا للاساتذة - بوزريعة - الجزائر

ملخص :

كان لابد و انطلاقا من مجموعة من السؤالات التي أرهقت العضلات الفكرية للباحثين، أن نجيب على سؤال مهم في هذا المجال و أجابته رد على المركزية الأوروبية ومع سيرة الأميرة ذات الهمة حاولنا تحديد هذا النص ووضعه في خانة من خانات الأجناس الأدبية فكان مع جملة من الخصائص إجابة على جملة من الأسئلة المفككة للنزعة و النظرة الأوروبية .

Abstract:

Along the different questions inquires from which scholars were worried at. It was imperative to investigate an important question in this field. in reply to this question there was a response at the European centralism. besides throughout the Dat-lymas princess's life we attempted to limit this text and to consider it within the various literary genres as a unique one the text with a number of features was a response at a set of questions deciphering the tendency and the European perception as well.

كانت الأجناس الأدبية موضوع اهتمام الباحثين منذ عصور مضت بل ومنذ أرسطو في كتاباته، والتنتظير لهذه الأجناس كان محل النقاش في الآداب القومية والعالمية.

هكذا كان الحال بالنسبة للجنس الملحمي، الذي طالما كُرس فيه فكرة أوربية مركزية تدعي أن هذا الفن أو الجنس الأدبي لم تعرفه أمة غير الغرب فكذا كان سؤالنا هاهنا، هل هذه الملاحم الأوربية هي التي تعبر عن ما يسمى بالملحمة كجنس أدبي، وليس كنص مطروح في هذا القالب ؟ وهنا يصبح من الصعب استبعاد العديد من الأمثلة غير الغربية سواء تعلق بأعمال ملحمية أم لا. لذا ينبغي علينا طرح السؤال التالي أيضا: ما هو هذا الجنس ؟ وما هي محدداته ومعاييره ؟ وهل يوجد أنموذج واحد نحتكم إليه ؟ وهل يوجد في غير الغرب ملاحم ؟

وقد كانت هذه الدراسة على شقين اثنين، الأول منهما حول السيرة، دراسة وفهما لشخصياتها، أما الشق الثاني فكان عبارة عن دراسة تطبيقية، وكان من خلاله الوصول إلى الإجابة على السؤال المطروح، حول وجود ملاحم في غير الثقافة الغربية ؟ إضافة إلى وظيفتها الإيديولوجية في الثقافة العربية.

1- حول السيرة كنص و تاريخ شعبي و علاقته بالتاريخ و الواقع:

لما كان هذا النص يحمل ما يحمل وهو في هذا القالب الشعبي، كان جديرا بالاهتمام ودراسته من جهتين في هذا المقام ، أولهما مدى حقيقته التاريخية التي استند إليها الرواة واستطاعوا من خلال التاريخ سرد هذه السيرة التي جاءت تمجيذا

لقبيلة واحدة وهي " بنو كلاب " كونها جزءا لا يتجزأ من التاريخ العربي في فترة معينة، فوجب علينا أن نقارن بعض الحوادث التاريخية المهمة في واقعها مع وجودها في سيرة الأميرة ذات الهممة، ودافع الرواة في ذلك .

ومن جهة أخرى الشخصيات المتحركة في هذا النص ومدى قدرة الرواة التحكم فيها ، سواء في استعمال شخصيات تاريخية و دمجها في السيرة، مع عزلها على أصلها التاريخي و إبقاء دورها و أهميتها أثناء حركتها في الواقع الحقيقي، وما المراد من ذلك الاستعمال؟ ، وهذا بدراسة أبطال السيرة و مهمتهم فيها وهذا كله جاء تعريفا بالسيرة من جهة التراث الشعبي و الواقع التاريخي.

1-1- التعريف بالسيرة و حقيقة التاريخ :

نشأت السيرة لتمجيد أسرة بني كلاب المعروفة عبر التاريخ ، وإعلاء شأنها في الجهاد الذي تحملته الدولة الإسلامية ضد الروم، وقبيلة بني كلاب التي استوطنت في مناطق الثغور لتقوم بدورها في الجهاد، كما تذكر دائرة المعارف ⁽¹⁾، وكما يذكره القلقشندي في صبح الأعشى ⁽²⁾، فالموطن الأول للسيرة يتضح أنه في منطقة الثغور أي بلاد الشام، وسنستخرج قرائن تدل على ذلك من خلال نص السيرة .

⁽¹⁾ نبيلة إبراهيم، سيرة الأميرة ذات الهممة دراسة مقارنة. المكتبة الأكاديمية القاهرة ط1

1994 ص 72

⁽²⁾ نفس المرجع.

ويذكر القلقشندي أنهم ينتسبون إلى عبد الوهاب بن بخت المذكور في سيرة البطال وأنهم كانت لهم غارات عظيمة في بلاد الروم ⁽¹⁾ وليس غريبا أن تنشأ سيرة عظيمة تمثل قبيلة في بلاد الشام، وهي بمثابة ملحمة عربية تشيد بكفاح الأبطال في الحروب العربية البيزنطية .

كما أننا من خلال بعض القرائن اللغوية الدالة على أنها نشأت في بلاد الشام قول الرواة : الحبايب ، بخ بخ أنت والله صاحب النسب ، فقلت يا ستي، داخ الرأس، ما هذا رأي مليح ، شحط برجليه الأرض.

وبعض هذه القرائن تدل على أن منشأها الأول كان بمنطقة الثغور (بلاد الشام) موطن بني كلاب الذي استقروا به بعد هجرتهم من قلب الجزيرة العربية، وذلك بعد تنصيب الصحاح ملكا للعرب، مكان مروان بن الهيثم زعيم قبيلة بني سليم .

أما نص السيرة عبارة عن قصص يحكيها مجموعة من الرواة عن أبطالها، كان أولهم الحارث الكلابي، زعيم بني كلاب، ووصفا لمعاركهم، سواء الداخلية وتكون ضد القبائل العربية، أو الخارجية ضد الروم خاصة، وذلك مع أحفاد الحارث الصحاح وأبنائه وصولا إلى الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب، وبعض الأبطال المساعدين كالبطل وأبناء عبد الوهاب، تتحدث السيرة في نصها من خلال سبعة مجلدات، وهي تسمى سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب والأمير أبو محمد البطل وعقبة شيخ الظلال وشو مدرس المحتال، ويصفها

⁽¹⁾ نفس المرجع.

جامعها ومدونوها بأنها أكبر تاريخ للعرب وخلفاء بني أمية والخلفاء العباسيين جمعت أخبار العرب وحروبهم ، وأخبار ملك مصر والشام وبغداد، وغيرها من بلاد الإسلام وبلاد الإفرنج، وفيها من الفتحات ما يبهز العقول (1).

وبالرغم من أنها كانت تمجيدا لقبيلة بني كلاب إلا أنها تعرضت في نصها إلى قبائل كثيرة من قبائل العرب وزعمائها ، كبنو النمير، وبنو عامر، وبنو الريان وبنو سليم ، وتطرقت السيرة في أغلبها إلى حرب المسلمين على الروم وأخذت هذه الأحداث حصة الأسد من السيرة، وكانت هذه الأحداث في زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، وذلك كما ورد في السيرة على لسان الناطق بها : «أنه لم يكن في العرب العربا ولا في السادات النجباء، من معد بن عدنان ويعرب وقحطان، في زمن بني أمية أشد بأسا ولا أقوى مراسا، ولا أعظم اقتدارا، وأجلد صبورا، ولا أسمى علما، ولا أشرف عند الأنساب ولا أقوى عند الطعان والضراب من بني كلاب السادات الأنجاء، لأن فيهم الكرم الشائع وهم أصحاب الوقائع وليوث المعامع، وأهم الجفان والجوابي وتقصدتهم العرب من السهول والروابي» (2).

ومن هنا نعتقد على أن هذه السيرة جاءت لتمجيد ومدح وتعظيم شأن بني كلاب.

1-2 - الأساس التاريخي للسيرة:

إذا كانت اللغة من شأنها أن تعيد تشكيل الشخصيات التاريخية بحيث تجعلها تقترب كل الاقتراب من نفسية القارئ، فإن السيرة أعادت تشكيل الشخصيات التي

(1) سيرة الأميرة ذات الهممة ج1 ص 05.

(2) نفس المرجع ص 06

روى عنها التاريخ أخبارا موجزة للغاية، بحيث جعلت منها السيرة تعيش مع شعب بوصفها أروع نماذج للبطولة.

لذلك فقد عاشت شخصية عنتره و الظاهر بيبيرس والبطال في ضمير الشعب وما تزال تعيش في ضميره حتى اليوم⁽⁶⁾

أما بالنسبة لشخصيات السيرة فمعظمها تاريخية إلا ذات الهمة وعقبة المحتال روى الطبري عن عبد الوهاب وكانت وفاته 113 هجري، وأنه غزى مع البطل عام 113 هجري، كما يذكر الطبري أن السيد البطل توفي سنة 122 للهجرة النبوية⁽⁷⁾.

كما تروي السيرة بطل قبيلة بني سليم عمرو بن عبد الله الذي توفي سنة 249 للهجرة، كما ورد في الطبري⁽⁸⁾، وأن عمرو بن عبد الله و يحيى الأرميني كانا بطلي عصرهما، وقد كان الشعب يحبهما إلى درجة كبيرة، وعند موتهما عام 249 للهجرة أحدث شغبا واضطرابا بين الشعب⁽⁹⁾ وهنا نلاحظ اختلاف الأزمنة بين عبد الوهاب و عمرو بن عبد الله، إلا أن السيرة جمعتهما معا في زمن واحد وحروب واحدة، أما يحيى الأرميني فقد ورد في السيرة عابرا.⁽¹⁰⁾

وبما أن العلاقة العدائية بين بني كلاب وبني سليم تتركز على أصل تاريخي كما ذكرته دائرة المعارف والقلقشندي صاحب صبح الأعشى، وأن قبيلة بني كلاب تنتسب إلى قيس وكانت تسكن قلب الجزيرة العربية، وأنها كانت تشن غارات ضد الروم، وأنهم ينتسبون إلى عبد الوهاب بن بخت الذي سجل بطولته في سيرة البطل⁽¹¹⁾، وقبيلة بني سليم أيضا كانت تسكن أرض الجزيرة العربية وعمرو بن عبد الله كان ينسب إليهم وقد كان هذا عمرو أمير ملطية.

على أن هذا لا يفسر العداوة المستحكم بين القبيلتين كما تصوره السيرة، أما الخلاف بين القبيلتين فيرجعه المؤرخون إلى الحسد الذي كان بينهما، كونهما ينبثقان من قبيلة قيس، وبنو سليم هي من أعظم فروع هذه القبيلة. ولما كانت السيرة تبدأ بعصر عبد الملك بن مروان وتنتهي إلى عصر الواصل بالله روت السيرة هذه المرحلة بل وحتى انتقال الخلافة من الدولة الأموية إلى العباسية. أمار أثر الثورات العربية على القصص الشعبي فإننا نلاحظ أن السيرة كثيرا ما تشير إلى ثورات يقوم بها خارجون من الفرس على الدولة الإسلامية، ومن ذلك ما تذكره السيرة، ذي النجدتين ضد المعتصم⁽¹⁾، وتذكر ثورة رجل يدعى هرمس⁽²⁾، كما أن السيرة لم تغفل ذكر أهم المعارك الحربية التي دارت بين العرب والروم مثل حملة مسلمة بن عبد الملك بن مروان التي اشترك فيها الأمير الصحاح جد الأميرة ذات الهمة⁽³⁾، كما ذكرت السيرة الحصار الذي دام سنين على القسطنطينية ودام كما يذكر التاريخ سبع سنين، وبالمثل فقد أسهبت السيرة في وصف معركة عمورية وفتحها من طرف المعتصم⁽⁴⁾. وبهذا نجد أن الصلة بين السيرة و حوادث التاريخ قوية جدا، ولكن هاهنا هل السيرة تحكي لنا تاريخا ؟

⁽¹⁾ السيرة الجزء 3

⁽²⁾ السيرة ج 5 ص 47

⁽³⁾ السيرة ج 1 ص 5

⁽⁴⁾ السيرة ج 6

وهنا يتحتم علينا أن نفرق بين التاريخ العلمي والتاريخ الشعبي، فالتاريخ العلمي يقوم على أساسين:

- التدوين.

- تسلسل الأحداث تسلسلا موضوعيا وزمنيا.

أما التاريخ الشعبي فهو يقوم على الرواية الشفوية، كما أنه لا يحرص على تتابع الأحداث زمنيا، فقد يكتفي الشعب برواية حادثة ينتزعها من بين ثنايا التاريخ ويظل يرويها لأنها تهمه، ويكفي أن تكون الحادثة مستجيبة لرغبة جماعية تعيش في نفوس الشعب زمنا طويلا.

ومن ثمة فإن هذه السيرة تعد تاريخا شعبيا لأنها اعتمدت على الرواية الشفوية إلى أن دونت.

2 - دراسـة الشخصـيات:

استطاع رواة هذه السيرة أن يستخدموا التاريخ كمادة خام لتقديم أحداثها، رغم معارضتها للتاريخ في بعضها سواء في الحقيقة التاريخية من جهة أو الأصل التاريخي للشخصية في حد ذاتها.

فقد استخدمت السيرة أبطالا حقيقيين تاريخيا رغم تفاوت الزمن بينهم كعبد الوهاب وعمر بن عبد الله، بالرغم من الحقيقة التاريخية، وقدمت السيرة هذه الأبطال في قالب سردي يخدم الحدث وهو تمجيد قبيلة بني كلاب.

على أن السيرة غيرت الأصل الحقيقي لبعض الشخصيات حسبما تقتضي السيرة فاحتاجت إلى بطل ينافس عبد الوهاب فكان عبد الله بن مروان، وإلى

متحایل يقابل المنافق عقبة فكان أبو محمد البطال بن الحصين، وقد غيرت السيرة له أصله كونه كان ضرغاما لا فاشلا محتالا فقط، لكنه أدى وظيفته بصيغ أخرى. تاريخ ذات الهمة يرسم خطوطا عريضة غالبا ما تتمثل في حياة كل بطل فحياتها كبطلة تبدأ بظهور أمارات القوة قبل وبعد ولادتها، ولما كانت ذات الهمة أنثى فحدث أنها غير مرغوبة فتبعد عن أهلها، وهنا تكريس لجاهلية كانت لا تزال إرضاءً للخليفة المنصور، ودخل بها الحارث بالمكر حيث وضع لها البنج وجامعها وهي حائض .

قدمت ذات الهمة أعلى مفهوم للمرأة المقاتلة رغم رفض المجتمع لها إلا من عرف حقها، وامتازت على غيرها من الرجال بصفات الكمال، لذلك فإننا لا نستغرب كونها امرأة قائدة أشاد بها التاريخ والقصص الشعبي.

وعلى الرغم من أن عبد الوهاب هو ابن ذات الهمة لكنه بطل السيرة الأول وكان في عديد من الأجزاء كالظل لأمه فما كان يخالف أمه حتى في الزواج وهنا تقدم السيرة بغض النظر عن النماذج الجسدية في القوة نماذج بأبعادها النفسية ومما لا شك فيه أن شخصية ذات الهمة استطاعت أن تحطم كل قيد في سبيل تحقيق الذات، وهي أكثر اكتمالا من شخصية عبد الوهاب، وإن بدا الاثنان بطلان لا يناوئهما أحد في البطولة.

– أما السيد البطال الذي تحدثت عنه السيرة يخالف الأصل التاريخي الذي عرف بالشهامة والقوة والبطولة، فحولته السيرة في بادئ الأمر إلى خائف جبان ثم إلى محتال ماهر كبير يساعد المسلمين بحيله، وصوّرت السيرة بحيله واستغلت فيه موضوع الخداع والحيل استغلالا خياليا إلى درجة كبيرة ومبالغ فيها، وهذا الخيال

هو نتاج خيال الرواة، وهو المحرك الأول لأحداث السيرة، والمغير فيها لمجموعة من مسارات السيرة .

- وكما في كل قصة، نفاق وعمل مضاد، لهذا فقد أضفت شخصية عقبة السليمي الرجل العابد الزاهد المنافق، وهو يبالغ في ابتداع الحيل كما يفعل البطال وشخصيته كالبطل، تعد في الحقيقة المحور الذي تدور حوله كثير من الأحداث في السيرة.

- شخصية الخليفة التي كانت بصفة عامة مهتزة نتيجة اضطراب العصر فالخليفة لا يستطيع أن يفصل بين الخير والشر فصلا قاطعا إذا استثنينا المعتصم الذي استطاع أن يدين عقبة على الخلفاء الذين سبقوه، والخليفة هنا منشغل بأموره الخاصة أكثر من العامة، أما المعتصم فكان نموذجا للخليفة البطل الذي يشارك الشعب رغباته وآماله .

في ضوء هذا الفعل التاريخي الذي يفرضه النص الشعبي، نحن مضطرون لإعادة النظر في آلية قراءة الراوي الشعبي الجمعي للتاريخ وأحداثه، لنلامس سطوته الفنية وسيادته في امتلاك ما هو جوهري في التاريخ، وإعادة إنتاجه بما يتوافق مع غايته القيمة في صياغة واقعه المعيش.

" ونحن مدعوون أيضا لاحترام بلورته لصورة المستقبل ضمن حلم خاص مشروعا قوميا وايدلوجيا وفنيا، بوصفه متجاوزا لصورة التراجع على المستويين الداخلي والخارجي، وحاملا لقيم النهوض الوحدوي في ظل التمزق والتشرذم⁽¹⁾.

⁽¹⁾ د يوسف إسماعيل - بتصرف -

3-دراسات نص الأميرة ذات الهملج و إثبات الطييع الجناسيخ:

إن الولوج في أعماق النص و الغوص في وحداته اللغوية لخير دليل و إثبات لكل دراسة، ونحن في هذه الدراسة، كان انصباب بحثنا على الطييع الجناسيخ لهذا النص، وبعد الانتهاء من شقها التاريخي، فما نحن هنا نعلم إلى دراسة النص من حيث بعض الوحدات اللغوية كأسلوب النص، ووضعيته التلفظية ووظيفته الاجتماعية، سواء بين الشخصيات داخل النص أو الوظيفة التي يؤديها النص خارج هذه الحركة السردية للأحداث

3-1 _ السيرة جاءت تكريسا للواقع و ترسيخا لى فلاح نفوس السامعين:

جاءت السيرة منذ بدايتها وكأنها واقع تعيشه من وجهين، مسايرتها للتاريخ واستخدامه كمادة خام لتكريس الواقع رغم أنه غير حقيقي في بعض الأحيان، إلا أنه يعبر عن واقع كان أو يُعاش مثله، هذا من جهة التاريخ، كذلك من جهة توظيف الواقع الحياتي مثل ما كان بين المسلمين والمسيحيين، وعبرت عنه السيرة عندما ذهب الصحاح إلى ذلك الدير وما لاقى من ترحاب شديد من طرف الرهبان، إلى درجة عدم إحضار الخمر إلى المجلس الذي كان فيه، لأن شريعته تحرم ذلك، ورغم اختلاف الملل إلا أنهم أحسنوا له الاستقبال والإجلال لأنه ملك العرب، على أن هؤلاء مسيحيين يعيشون مع المسلمين، وهذا تكريس لواقع كان سائدا في ذلك الوقت.

الجن، ومفهومه في الثقافة العربية من جهة والاعتقاد الإسلامي من جهة أخرى، وكذا الزواج بالجن الذي لم تكن قد جاءت به الشريعة الإسلامية، لكنه كان

في الثقافة العربية، وكذا الحروب التي كانت العرب تتميز بها، والإغارة التي عُرِفَتْ بها رغم أنهم مسلمين، إلا أنهم لم يتركوا بعضاً من جاهليتهم.

هذا ولما كانت في ذلك الوقت حروباً بين المسلمين والكفار جاءت هذه السيرة في خضم هذه المجريات الحياتية حتى تُعَلِّي من همم المسلمين.

ورغم أنها سيرة شعبية إلا أنها تلهم في نفوس الناس، على أنهم على صنفين فكذا كان الفهم فيها وفي تبليغها، فالخاصة تُبَثُّ فيها روح أبطالها (السيرة) فيأخذونها محمل الجد على أنها حكاية عن أجدادهم وبطولاتهم وتسامحهم وإعانتهم لبعضهم البعض، لأنها كانت تحكي بطولات العرب رغم تركيزها على قبيلة واحدة، إلا أنها لم تغفل بقية العربان وذلك مما تقتضيه الحكاية في جزئيتها وعلاقتها بالعرب وغيرهم.

والسيرة نص ثري بكل ما يتعلق بالعربي خاصة وبالمسلم العربي والمسلم عامة، وذلك في العلاقة فيما بينهم كعرب من جهة ومسلمين باختلاف انتسابهم من جهة أخرى فكانت السيرة حياة دامت من خلال حكايتها على ما يزيد عن المائة عام **تَحْمَلُ مَخْرُونَ:**

أدبي: لغتها من جهة وهي تمثل لغة أشخاص القصة وشعرهم الذي كانوا يتبارون به في حديثهم وحروبهم فكانت السيرة موسوعة لغوية وديوان شعري، وتراث أدبي يعبر عن تلك المرحلة بهذا المعجم المعرفي الموسوعي إن صح تعبيرنا إلى حد ما تحمله السيرة .

ثقافي: وهذا من خلال العادات والتقاليد العربية من جهة في طريقة زواجهم وحبهم الذي لا مثيل له؟ ، وثقافتهم في الحرب والقتال والسفر والخوف

على الزوجآل وكرمهم آلى مع أعدآئهم، وكذلك ثقآفلئهم مع غير المسلملن وفهمهم للآآر، هذآ كونهم عرب، أما كونهم مسلملن فلئلئل فل رفضهم لبعض الثقآللل العربلة آآهلفة، وآمئلآل و ترسلخ لبعضها كونها من الرسول الأكرم محمد صلى الله علیه و سلم.

سلأسل: كشلل السلرلة من آهة على العلفة السلأسلة اللل كآئل سآئدة ببلن العرب فلما ببلنهم وهذآ على المسؤل القبلل، من آلال الحكم والذل للكون للقلول ذو المال الكآلر مهمآ كآ، آآلى مع آندبة وآبنه الصآصآح وكذلك ذآل الهمة لملآ عآدل إلل قبلئلئها، وهذآ مآ كآن عئل العرب لدرآة أن قبللة آبلل قبللة فلآصلل المغلولة آآبعة للآلفة.

أما على المسؤل الأكبر وهو الآلفة فلنآآظ شقآق و آنآزع على الحكم، مآلما كآن من الوللل بن عبد الملك بن مروآن آذل آآله الغآئب مَسلمة، والآملن والمؤمنون، فهل صورة لواقع سلأسل كآئل آآآبط الدولة الإسلاملة فله، ونذكر بآن هذة السلأسة اللل كرسلئها السلرلة آآئت أهدافها على شقلن :

- أرصلئلئها الشعللة اللل كآئل آلى من غير الشآصلآل الآرلآآلة اللل لم آكن سؤل مآدة آآم للآآلة وهذلها.

- آكرلس الآرلآ كآئل مهمئل رفع قلمة السلرلة من آهة لأنها كآئل آآللل الملوك ومسمعمهم، على المعآصم آم الوآق من بعده فل عهد الدولة العباسلة، وبالآآلل لما نزلل فل هذآ القآلب إلل العامة لآقت روالآها، وهذة للسل آآكامآ عشوآللة، ولكن الرلظ ببلن مآ هو آرلآآل بالشعلل أبآن نفسه.

اجتماعي: المخزون الاجتماعي جمع كل ما سبق ذكره، إلا أننا نركز هاهنا على شيء مهم وهو عقلية المجتمع العربي كمجتمع لا كحياة داخلية تمثلها الثقافة، حيث أنه كان مجتمعاً تجمعه الوحدة العربية من جهة والإسلامية بشكل أعم، ويتضح ذلك جلياً في الانتصار لبعضهم البعض لسبب قد يُخل ما يسمى بالعربي الأصيل، مثلما فعل الصحاح مع مروة بنت عبد الملك الخليفة، وقد كان مروان بن الهيثم يريد إنقاذها، فاتحداً رغم العداء الذي كان بين قبيلة بني كلاب وبني سليم، وأعم من ذلك اتحاد العرب لمحاربة الروم تحت راية عبد الملك، الذي كان قائد جيشه ابنه مسلمة وملك العرب الصحاح وكان معهما مروان بن الهيثم زعيم بني سليم، رغم تنافسهما على مرتبة ملك العرب.

وهذه العلاقة الاجتماعية التي كرستها السيرة كانت بمثابة شاحن للطبقة الاجتماعية مخزوناً وموروثاً للأعم بل ويمكن اعتبارها وثيقة إضافية في علم الاجتماع وعلم التاريخ .

الديني: لما كانت السيرة تعبر في فترة زمنية عرفت بالإسلام في بداياته، كان الفكر والثقافة الدينية مصاحبة للرواة، بل والدين يحدد السيرة بشكل عام في جميع الأحداث والدوافع والأهداف وحتى العادات والتقاليد الخاضعة لأحكامه، وكذا مفهوم الآخر وعلاقة المسلم به وحدودها .

على أن لا ننسى في هذا المبحث أن السيرة أهملت جوانب عدة لما ركزت على قبيلة فراحتم تمجدها بكل طرق التمجيد، لدرجة أنها سخرت التاريخ بشخصياته وأبطاله وأبرز أحداثه وحوادثه وأشهر معاركه لخدمة القبيلة، بداية في إنقاذ الصحاح لابنة أمير المؤمنين عبد الملك ثم مصاحبته لابن الخليفة إلى

غزو الروم ونجاحهم في ذلك وفتحهم للقسطنطينية والشرف الذي لحق ببني كلاب، وأبناءؤه من بعده وكان أبرزها ذات الهمة وولدها عبد الوهاب اللذان لعبا دورا مهما في أحداث السيرة، لدرجة أن السيرة لاقت بين شخصيات متباعدة كعمرو بن عبد الله بن مروان بن الهيثم مع عبد الوهاب فجعلت منهما مادة خاما لخدمة أحداث السيرة قصد بيان أهمية بني كلاب، فكانت السيرة رواية عظيمة خلدت قبيلة بني كلاب.

لكن هذا التركيز كان بدا منه أن يأخذ بجوانب عديدة محيطة بالقبيلة كونها عربية مسلمة تعيش في وسط، ولها علاقات مع من يجاورها.

أما الحكاية فكان مجملها عبارة عن بطولات فيها نزاعات و خصومات و حروب بدءا من القبلية إلى الفتوحات الإسلامية، وهذا ما ميزها نوعا أدبيا ملحميا نتحدث عنه فيما سيأتي من الدراسة .

كما لا يفوتنا أن نذكر ما كان من صفات العمل السري الذي اعتمد على الدين كمادة في العمل الحربي والطائفي القبلي، فدائما كان المنافق الذي يريد الخديعة يأتي على شكل رجل صالح، وهذا ملائمة مع الحياة الإسلامية و النظرة إلى الإنسان العابد الزاهد، كان هذا المظهر باديا في القبيلة والمملكة، ففي القبيلة مثلاً خاصة من كان يريد سرقة فرس جندبة (مزنة) من طرف الغطريف الذي بذل ابنته مقابل لمن يأتي له بالفرس، وكان كل المبعوثين يلبسون لباس الدين والتقوى والورع والزهد والحسن في التعبد، فكانوا يمثلون أرقى درجات النفاق بمفهومه الثاني في ذلك الوقت، وعلى المستوى الأكبر ألا وهو الدولة والإمارة ، وذلك لما يكون شيطان في حقيقته فاجر فاسق في ثوب أعلى درجة الزهد والتعبد

والإمامة، ويمثل هذه الشخصية " عقبة السليمي "، الذي منذ ولادته وما رآته أمه في المنام، مثل دور الشيطان الذي يلعب على الحبلين، وكذلك الشيخ الذي كان بين الروم والمسلمين ومثل رغم نصرانيته أرقى وأكمل الرجال الزهاد.

وهذه الشخصيات كانت سائدة في الثقافة والواقع العربي، وشخصتها السيرة بدرجة عالية من التمثيل للواقع، حتى أنها كانت لا تغلح دائما رغم دهائها، وهنا: يحضرنا جانب آخر كرسه السيرة، وهي العقيدة العربية التي كانت راسخة، وذلك في تفسير بعض الغيبيات، رغم ما كان من معتقدات كرسها الإسلام وأثبتها بالدليل القرآني ومثال ذلك ما كان في تحقيق المنامات وإيمانهم بها أشد الإيمان، وبأن ذلك فيما تثبته السيرة في تحقق هذه المنامات مع أبطال السيرة وتكون دائما إيجابية، فنطقت به السيرة في قصة رؤية الرباب زوجة الحارث الكلابي، وكذا الصحاح وأبناؤه والأميرة ذات الهمة ورؤية زوجة الوليد بن مصعب لشيطانه عقبة، فكان هذا مصاحبا لتفسير الأحلام الذي كان سائد اعتقاده، كما لا يفتنا ذكر ظاهرة استحضار الجن والحديث معه من طرف راهب أو كاهن رغم معارضته لمعتقدهم .

ظاهرة التأثير كانت بادية في مجتمع السيرة رغم أن الرسول صلى الله عليه وسلم أسقطه وهنا دليل على رواية بعض الأخبار الجاهلية و سياقتها ضمن زمن القصة كما بدا تشاؤم الرجل العربي من المرأة رغم الإسقاط أيضا، لكن هذا الأمر رفض و دليله هو تمجيد السيرة للمرأة البطلة، وهذا ينم عن رفض الفكرة الجاهلية .

2-3 - الوظيفة الاجتماعية للسيرة:

عندما نتطرق إلى مثل هذه النظرة إلى السيرة، علينا أن نذكر بالأدب الشعبي الذي يندرج تحته هذا الإنتاج و علاقته بالتاريخ، ومن هنا تظهر الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها النص، بوصفه يروي أحداث حروب من جهة، وعلاقة هذه الحروب والبطولات من جهة أخرى، وهي على شقين: التاريخ في حد ذاته، ثم طريقة توظيف الشخصيات التاريخية والحركة التي يتحكم فيها في توجيه هذه الشخصيات .

«فالعلاقة بين التاريخ والأدب الشعبي وواقعه هي علاقة ارتكاز، وفيه يقتبس الأدب الشعبي من التاريخ ما هو شعبي في جوهره الإيديولوجي والفني، دون أن يفقد كل منهما خصوصيته وطابعه، ويتم ذلك بواسطة الرواة المحترفين وخيالهم المتقدم، وذاكرتهم القوية وثقافتهم التاريخية العميقة، فيروون على الناس بطابعهم المتميز بخصوصية عصرهم»⁽¹⁾ وأحداث الأيام المشهورة، و بطولات الشخصيات التاريخية التي كانت فاعلة في أحداث عصرها، ثم يدمجون تلك المادة التاريخية بالقصص والأساطير التي غدت جزءاً من ثقافة عصرهم دون النظر إلى مفهوم الصدق التاريخي بمعناه العلمي.

و «بتلك المفارقة الضرورية بين الأدب الشعبي و التاريخ يستطيع الراوي إيقاظ الشعور الإنساني لدى المستمعين، بجعلهم يعيشون الدوافع الاجتماعية والإنسانية والقومية والدينية... التي دفعت الشخصيات التاريخية إلى القيام بأفعالها، وذلك نتج

⁽¹⁾ يوسف اسماعيل الرؤيا الشعبية في الخطاب الملحمي عند العرب ص 16.

لأن الجوهري في المادة التاريخية المقتبسة هو المواقف والأفعال ودلالاتها وليس التاريخ بالدقة العلمية⁽¹⁾، وهنا أخضع الراوي المادة التاريخية لفعل خياله وأبعدها عن طبيعتها التاريخية الجافة، وخلق منها نصا أدبيا، لا يفيد هذا النص في البحث عن المادة التاريخية الموثقة بقدر ما يفيد في البحث عن جوهر الصراع بين العرب والروم، والصورة المشرقة التي بدت فيها الدولة العربية في تلك الحقبة التاريخية.

واستحضرت السيرة ذلك الفعل البطولي وتلك الوحدة العربية الإسلامية في عصر تمزق الدولة العربية الإسلامية سياسيا وفكريا واجتماعيا، وضعفها أمام العدو الجديد المتمثل في المغول والصليبيين في الخارج، والانحلال والفساد والاضطراب في الداخل .

وتكمن الوظيفة الإبداعية للسيرة في نسج الشخصيات الأدبية التي تخدم بنية الخطاب الإيديولوجي بجوانبها المتعددة ، الوطنية و القبلية و الاجتماعية وفق الوعي الفني السائد في عصر إنتاج السيرة، وتمثل الوعي الاجتماعي أيضا في ذلك العصر مثل توازن العلاقة بين قوة السيف والذكاء والحيلة، وتوازن العلاقة بين المواطن وواقعه المجزأ، من خلال العودة إلى الماضي المجيد واستلهم المواقف والأفعال.

على أن لا ننسى تلك الوظيفة الاجتماعية التي كان يؤديها أبطال السيرة في واقعهم القصصي، والذي ينعكس بإيجابية على الواقع الخارج عن النص.

⁽¹⁾ نفس المرجع ص17.

3-3 - الوضع في التلفظ:

الدارس للسيرة بعد قراءتها يلحظ وضعية خاصة صيغت على المستوى التلفظي وبالتالي كان الراوي يتقمص شخصية الرواة منذ البداية وهذا بعد كتابتها وذلك في قوله : " روى هذه السيرة مجموعة من الرواة " وذكر المجموعة التي أشرنا إليها.

وهؤلاء الرواة الذين أثبتت بعضهم بأسمائهم في السيرة مثل نجد بن هشام فجاءت السيرة على لسان مجموعة من الرواة يقومون بسرد أحداث هذه السيرة.

ومن الملفت للانتباه أنها جاءت على لسان الرواة تارة وذلك في وصف الحروب وبعض المواقف بين الأبطال ومشيمهم وذهابهم وإيابهم، أما حديث الشخصيات فكان معظمه شعرا من الطفل الصغير إلى البطل الكبير وبالتالي تبدو هذه الرواية على أنها كانت مشافهة قبل تدوينها فيما هي عليه اليوم، وكانت على مجموعة قصص كثيرة، كانت تُروى في الجاهلية والدولة الأموية والعباسية وبعض الإضافات الأخرى.

ولما كانت السيرة تُروى في عهد الوثائق الذي أراد تمجيد أجداده من خلال ما روته السيرة في الأخير، هذا ما يثبت أنها كانت تروى مشافهة.

كما لا يخفى أن نُدج أهم من ذلك ألا وهو طريقة هذا التلفظ، والوضعية التي جاءت عليها السيرة، ألا وهو الانتقال من النثر إلى الشعر، وذلك على حسب الوضعيات الحكائية ووضعية الشخصيات أثناء حركتهم في أحداث السيرة .

فطريقة التلّفظ عند الراوي كانت دائما في قالب سردي من بداية الحكاية إلى نهايتها كقوله: ((فلما أصبح الصباح و أضاء بنوره ولاح، ونصلي على محمد سيد الملاح ...)) ، ثم يبدأ الراوي بالحديث والرواية على لسانه، فيكون هو من يقص و يوجه الأحداث، ويدع الكلام لبعض الشخصيات ضمن كلامه فيقول : فقال الشيخ للحارث ...

أما الوضعية الثانية فكانت على لسان الشخصيات أثناء الحديث مع بعضها البعض فيقدم لها الراوي بقوله: فأشارت تقول له هذه الأبيات، ويذكر ما قالتها وما قاله المتحدث معها وبنفس الطريقة، فكان الخطاب بالشعر السمة الغالبة في نص السيرة، إذ لا يكون حديث بين اثنين إلا وكان الشعر ضمن كلامهما أخذا وردا، باعتباره ديوان العرب، والدال على الفحولة والتمكن والفصاحة والبداهة فكان الذي يرتجل شعرا في الأحداث الصعبة وخاصة مع الأبطال يبهز السامعين ويدلهم على حقيقة البطل ويزيد ذلك من هيئته لديهم، كما كان من ذات الهمة وهي ذات سبع سنين.

كما أن هذا النوع من الخطاب ميز هذه السيرة عن بقية الملاحم والسير، إذ أن الراوي يلعب دورا مهما في توزيع الكلام على الشخصيات، سواء على صيغته التي تكون عند كلامه هي مسجوعة، فلا يخالف هذا السير في الخطاب، ويكون دائما الوسيط بين الشخصيات التي لعبت دور الحديث فيكون هو بمثابة الموجه كقوله: قال الخليفة ثم أجابه البطل ...

وحينا نجده يعلق على كلام بعض الشخصيات كقوله بعد حديثها سواء باستباق الأحداث، كأن يقص أحداث نوم، أو باسترجاعها في الزمن لا في الذك،

ذكر مثلاً قصة غانم وعمه الذي أراد قتله وساعده الصحاح، فراح الراوي هاهنا في حديث وكأنه جملة اعتراضية، تعرض من خلالها إلى حياة غانم منذ ولادته إلى يومه هذا الذي وقع فيه و قد خلصه الصحاح

والسيرة كانت كلها وفي بداية كل فقرة تبدأ بـ " قال الراوي " ، أو قال " نجد بن هشام "

كما لا يفوتنا أن نشير إلى بعض الملفوظات العامية التي كان الرواة يتداولونها على ألسنتهم كرواة ، أو على لسان الشخصية في القصة ومنها كثير، وترجع هذه الألفاظ والكلمات العامية إلى اللهجة الشامية أين جرت أحداث هذه السيرة ومنها : ضربه على نافوخه ، قال البطال: حسيت بنفسي، الحبايب، تروحي، بخ بخ ، ست فعال أولاد الحلال، داخ الرأس.

وهي كثيرة في السيرة مما يدل على مشافهة النص من طرف الرواة قبل تدوينه كما يدل على البيئة التي نشأ وكان يروى فيها هذا النص .

4 - أسلوب السيرة:

تميز أسلوب السيرة من خلال بعض السمات بنوع من الاختلاف عن النصوص الأدبية الأخرى وذلك من خلال بعض المكونات:

أ- التكرار: لما كانت السيرة حديثاً شعبياً يحكي قصة تجمع جهة واحدة من الحياة ألا وهي البطولة للشخص الواحد من جهة، وهذا ينجر عنه بطولية القوم أو الأسرة، وبالتالي بطولة القبيلة، وهذا مما جعل البطولة للدولة الإسلامية.

فكانت الأحداث تتوارد على السيرة وكأنها تنسخ من طرف الراوي، وتجتث من مكان إلى مكان آخر، وتضع الأحداث فوق بعضها البعض، فاقتصرنا هاهنا إلى ذكر المجمل الذي يحمل ما يحمل من المتكررات سابقا ولاحقا فكان بدء:

1 - تكرار كلمة قال الراوي أو تعويضها ببعض أسماء الرواة، وكان هذا في كل بداية فقرة جديدة، وذلك باعتبار أن السيرة كانت تروى مشافهة.

2 - تكرار المنام على أصعدة كثيرة ، فالبطل قبل ولادته كانت ترى أمه مناما ، فيفسر لها و يكون مستقبلا كما فُسر لها، بدءا بالحارث الكلابي وما رآته زوجته من نار تخرج منها ففسر لها أنه بطل لم يكن مثله في هذا الزمان، فكان جندبة الذي ذاع صيته في البلاد وقوته وعلمه وحكمته ورباطة جأشه، وقبل أن يتلقى الضربة التي أودت به رأى في منامه أنه سيرزق بولد لا يشق له غبار ووصف بصفات الكمال فكان الصحصاح، وكذلك ليلي زوجة الصحصاح التي رأت أنها سيولد لها ابن يعيث في الأرض فسادا فتسميه ظالم وولد آخر على عكس أخيه فتسميه مظلوم فكان ما كان في المنام، ونفس الأمر بالنسبة للأميرة ذات الهمة فاطمة وابنها الأسود عبد الوهاب، حتى عقبة المنافق الذي يمثل الحيلة والنفاق فقد رأت أمه أنها ستلد شيطانا فكان حقيقة، وراحت السيرة تكرر هذه الفكرة بتكرارها من بدايتها إلى نهايتها وهذا حتى ترسخ فكرة وشخصية البطل العربي الذي لا يشق له غبار.

3 - تكرار الأحداث: على غرار تكرار الكلمات التي تدخل تحت رايات من العناوين، فإن الأحداث كانت تتكرر كثيرا كحادثة محاولة سرقة فرس جندبة من

العديد من أتباع الغطريف وبنفس المحاولات والمراوغات والخداع والنصب والاحتيال.

كذلك تكرر أحداث الفرح والمعانات وخاصة معانات الأبطال في صغرهم ثم تفوقهم في كبرهم وأخذهم لحقهم بأنفسهم وكانت تتكرر مع كل بطل فجندي عاش في غير قبيلته ثم عاد بعد كبره عن طريق الصدفة، وكذا الأميرة ذات الهممة، وكل الأبطال تعيش نفس المعاناة ثم يقوم كل منهم ببناء بالاعتماد على قوته وشجاعته وبطولاته، وكذلك من خلال المفتاح الذي يدلّه على أصله.

4 - تكرر الوصف: جاء الوصف في هذه السيرة دائماً يميل إلى المطلق والكمال وكان كل الأبطال يوصفون بالكمال في القوة والشجاعة والدهاء والحكمة وأنهم لا يشق لهم غبار، وكانت هذه الأوصاف تتكرر مع كل بطل مولود جديد قبل ولادته حلماً وبعدها ممارسة على أرض الواقع، كقول الراوي: شاب ظاهر الجمال معتدل القد أسيل الخد عليه آثار الجد وقوله على جندي: الأسد الضرغام والبطل المقدام، هذه العبارة فقط تكررت عدة مرات مع كل الأبطال، هذا بالنسبة للأبطال، أما بالنسبة للعدو فكان الراوي ودائماً يصفهم بالقوة الجسدية لكن ما دون الأبطال، ويصفهم بالمنقصة في الأخلاق والظلال عن الدين، فكان الروم دائماً كما قال الراوي: وأما ما كان من كلب الروم ونسل اللئام

ذلك وأن العبيد كان لهم الحظ الدنيء في الوصف دائماً، فكان العبد أينما كان ومهما كانت قوته أو شجاعته، تكرر السيرة صفة الشخص النذل وأن العبيد لا يتوانون عن الغدر والخديعة، وأنهم أبناء زنى لا أكثر.

أما بالنسبة للجواري (هذا المعنى كان يطلق على كل فتاة جميلة)، فكانت توصف دائما بالجمال الفائق، بل وبأوصاف لا يمكن أن يتخيلها عقل البشر، كقول الراوي: ظهرت جارية مليحة القوام حلوة الابتسامة كأنها بدر التمام ولها وجه أقمر وجبين أزهر وخد أحمر وطرف أحور بثوب عظيم الشأن ...

هذه المشاهد تكون مكررة دائما ولو بتغير طفيف في بعض الألفاظ، إلا أن الصورة فنفسها وهي الكمال في الحسن والجمال وذلك في القبيلة أو الحرب.

5 - تكرار حوادث النجاة: دائما الراوي وعند ذكره لورطة وقع فيها البطل يأتي من يساعده فيكون المساعد شخص أقوى منه أو قوته هو في حد ذاته، مثل الحملات التي كان يفعلها الصحصاح حتى مع عدوه، وحملات ذات الهمة في الداخل والخارج، وكان الغرض من هذه التكرارات تحمل صفة العربي الشهم البطل، فيستغل الراوي هذه المادة في الوصف لسد الثغرات التي كانت سائدة ألا وهو الشقاق والضعف، وزرع روح الانتصار على الغير مهما كان ونصرة بعضنا البعض حتى ولو كان شقاق بيننا في الداخل ويكون هذا على العدو الخارجي وهو الروم، فذات الهمة أنقذت ابنها مرة والبطال وابنها مرة بنفس الطريقة وحتى بنفس طريق الصحصاح في إنقاذه لعمه عطاف.

6 - تكرار حوادث الهجوم على الخصم: الهجوم على الخصم يكون دائما بإقدام، وفي كل المشاهد القتالية، والضرب يكون بطريقة عجيبة وتكرر هذه الصورة مع كل ذي بأس شديد وقوة، رجل كان أو امرأة، ومثال ذلك هجوم الحارث على كل قبائل العرب وجميع أبنائه بدءا من جندبة الذي أعاد ملك أبيه وكذا الصحصاح مع عمه وذات الهمة مع عمها ظالم وعبد الوهاب مع جده ظالم وأبيه الحارث.

كذلك تكرار الصلاة والسلام على محمد صلى الله عليه وسلم بقوله ودائماً: يا سادة يا كرام صلوا على سيد الأنام هذا في البداية، وقوله: تم هذا بعد الصلاة والسلام على محمد أكمل وأحسن الأنام، وكان هذا في نهاية كل حدث أو فقرة وفي مواقف كثيرة.

هذا ومظاهر التكرار عديدة ومتعددة في السيرة ألقاها وصورها ومشاهد ووصفا للأبطال والمشاهد والنساء والعبيد والعدو، ووصف للأفعال والقتال والحرب والحيلة والخديعة فكانت كلها تميل إلى المطلق وهذا ما جمع كل هذه التكرارات.

ب - المبالغة والميل إلى المطلق: الناظر إلى أحداث هذه السيرة بعين البصيرة الواقعية، يرى أنها تميل إلى أكثر من المبالغة بل إلى المطلق، في أبطالها وذلك بوصفها لهم بأكمل صفات القوة والحكمة والجمال، وأحداث الحرب وأمكنة الطعان بأوصاف رهيبة، فراح الرواة في المبالغة التي توصف في حد ذاتها باللامعقول وخاصة الأبطال والمبالغة لا تكون سوى في حدود ما تعرفه العرب، من فروسية وضرب للسيف وقوة التحمل والشجاعة، وامتلاكهم لخيول غير عادية (أي وفق المخيلة العربية) وهذا يضيف على السيرة الطابع الأسطوري المتجاوز لحدود الواقع والحياة و القدرات الإنسانية و الصفات الآدمية و الأخلاق البشرية، والحكمة والحيلة التي في حدود العقل البشري، وكل هذا كان الرواة يميلون به نحو المطلق، الذي لا يُفنيه إلا مطلق مثله أو أكثر منه، فيقضي عليه سواء بالحيلة أو بالقوة أو بالجمال الأكثر الذي يأخذ مكان الأول، وفي ذلك أمثلة كثيرة لا يمكننا إحصاؤها ها هنا ونذكر على سبيل المثال ما يلي:

- حكاية الغزالة التي صادفها الصحصاح والكهف الذي تسكنه، يقول شيخ يصف للصحصاح ذلك المكان بأنه: وبعد دخوله الكهف، فإذا بباب من الذهب الوهاج ودهليز أرضه مطرزة بالرخام تطريزا، ثاني الأبواب أحسن من الأول، ودخل سبعة دهاليز وأبواب، ودخلنا قاعة كلها ألوان وجواهر حسان ولآلئ ياقوت. ص 484

- الغزالة ست الضباء بنت ملك الجن (جنية أم ضبية)

- عدم رؤية هذه الظبية عند حلولها وترحالها بين الناس.

- وصف البنات بأكمل صفات الجمال لدرجة أنه لا توجد مثلها كما وصف الراوي إحدى البنات بأنها كالبرق وقوله: " لما نظرت إليها وإذا بها بنتا ما في الأرض أحسن منها والبيت قد امتلأ نورا من وجهها، حتى ظن من كان في المجلس أنه برق "

- أما أبوها فهو أحسن أهل زمانه لدرجة أنه لا يكشف البرقع عن وجهه لئلا يخطف الأبصار.

- نكاح البنات الإنسيات من طرف الجن، والنكاح الذي يقوم به الجن كما وصفت السيرة يكون قبل الزواج في طرفة عين.

- الدخول إلى عالم الجن ومحادثته والاختطاف السريع الذي يقوم به الجن.

- قتل الرجل ألف مرة (كم يملك هذا الرجل من روح ؟).

- زواج الصحصاح ببنت الجان (ست الغزلان).

- الجنى ينفث النيران.

- وصف لحرب الجن بأوصاف رهيبة و كأن الراوي كان حاضرا ؟؟؟؟

- الشيخ الذي لقيه الصحاح في الدير لم يكن يأكل بعد مجيئه إلى جزيرة العرب سوى كعب في اليوم وشربة واحدة من قرية لقيها ص 478.
- وصف الجنية لما رآها صياد بأنها: خرجت من الماء و إذا رأسها رأس جارية وعنقها عنق نعامة وبدنها بدن سمكة ولها ساقان مثل الثور.
- الطائر الذي وكله الله لإنقاذ المسلمين من المهالك.
- حتى أن أحد الشخصيات يحكم بنفسه و يقول أنه جرى له أعجب الأحاديث، ولم يجز لأحد من البشر وقصته مع الجنية الغزالة.
- حرب الإنس مع البشر.
- ذات الهمة فاطمة كان عمرها خمس سنين وهي قدر من لها عشر سنين وتوصف بصفات الكمال، العقل القوة الجمال، وكانت وهي ابنة سبع سنين وقد أرادها أحد من القبيلة لنفسه في فاحشة، فأخذته بساعدها القوي وأخذت منه سيفه وقتلته ص 521. كما قتلت ضربة بن ضرغام وهي بنت سبع سنين وهو لا يقابله مائة فارس.
- نزول السيف من السماء في إحدى الحروب فكان من غير مجرى حياة أبو محمد البطال من الجبان الذي يخاف كثيرا إلى شجاع يمتلك فن الحيلة بكل معانيه، ودبر البطال حيلة مفادها أنه وضع السم في الطعام ضد العرب المتحصنة وكان عددهم 980 فارس فقتلهم، وكانت جميع حيله مبالغ فيها لا تخطر على بال عاقل وضرب به المثل فيها.

ج - موسيقى النص: مما جعل هذا النص طرفا ظريفا هذا النوع من الأسلوب في طرح هذه الموسيقى الخاصة، التي زواج فيها الراوي بين شكلي اللغة النثري والشعري، فكان النثر في كل السيرة حديثا مسجوعا، لا يسعنا حصره سوى بإعادة كتابة السيرة بمجلداتها السبعة، وجاء السجع على عدة خواتم وبمعظم أحرف العربية، أما الشكل الثاني فكان الشعري وقد جاءت السيرة حاملة لديوان عظيم من الشعر لو جمع على حدى، وكان على قوافي وتفعيلات كثيرة بل وعلى معظم بحور الشعر العربية، وبأسلوب جزل ومفهوم معظمه خطابات في مواقف عديدة (الحرب والاجتماعات ، وصف النساء و الخيول و المروج و الأنهار....) وموسيقى نص الأميرة ذات الهمة أكسبتها طابعا يمكن أن نتابعه بآلة موسيقية نسمع هذا الخفي منها، كما يسهل على القارئ تناول هذا النص بأريحية قرائية لا تتعب.

5- التلخيص

عودة إلى النظرة المركزية التي تتحدد مفهوم الملحمة وفق قانون أوربي وحصر هذا الجنس الأدبي بتلك النظرة، وانطلاقا من هذا النص، وبإلقاء النظر على مجموعة من البحوث العالمية التي مفادها أنه لا يمكن اعتبار النصوص الملحمية ولا يمكن أن تمثل سوى عملا لا إنتاجا بأكمله .

وبعد هذه الجولة التي أحسبني قصرت فيها كثيرا، وانطلاقا من بعض النتائج التي توصلنا إليها بداية من مضمون النص الذي يحمل صراعا داخليا وخارجيا تمثله حروب شرسة والقلب اللغوي الذي سُردت به أحداث هذا المضمون والتي

حددت طابع هذا النص الملحمي، كونه يحمل تكرارات ومبالغات وموسيقى خاصة، وإحدى الركائز المميزة لهذا الجنس الأدبي وهو الملحمة والتي يتكئ عليها في أسلوبه السردي، إضافة إلى ذلك المشرب التاريخي الذي ساقته من السيرة أحداثها، سواء بالنسبة للشخصيات أو حتى الشخصيات في حد ذاتها فجاءت الملحمة وكأنها تروي تاريخا في فترة زمنية محددة.

لكن الطابع الشعبي أخرجها من كونها تاريخ بل بقي في شعبيته التي تميزه عن التاريخ بمقاييسه.

وهاهنا السيرة نحكم عليها من خلال شقين اثنين، النص بطبيعته وحدات لغوية حامل لمجموعة من الأحداث التي تستند إلى وقع تاريخي حقيقي، لكن في قالب شعبي يتصرف الراوي في بعض أحداثه غير مغل بالتاريخ وهذا من جهة، ثم من جهة أخرى الأبعاد الواقعية لهذه الأحداث ومدى تحققها واكتسابها لبعض الأحكام المطلقة التي تميل إلى أسطرتها، سواء في الأحداث أو الشخصيات التي تسير هذه الأحداث .

ولما جاءت السيرة تمجيذا لبني كلاب وتاريخهم وبصفة تتجاوز الواقع، وكانت الأسطورة لحساب التاريخ جاءت هذه الملحمة نموذجا تاريخيا أسطوريا بامتياز، كان فيه توظيف الأساطير أو المطلقات في الحكم والصورة أي في الوصف كله لصالح أحداث السيرة التي تمثل صيرورة تاريخية.

خاتمة

ولعلنا في هذه الجولة التي عشناها في أحضان هذه السيرة قراءة ودراسة استطعنا أن نرى فكرة من زاوية أخرى على أنها خاطئة وذلك أن الملحمة وهذا الجنس الأدبي لا يمكن أن يوجد في أدب دون آخر على اختلاف اللغة والوطن وهذا كما كرست له الفكرة الغربية التي عملت طوال قرون من الزمن، بل نقول أن هذا الجنس يمكن إنتاجه وفق ما تقتضيه تلك الأمة من مقومات تحمله على ذلك . ونحن هاهنا لم يكن هدفنا دراسة السيرة من كل جوانبها وإنما ركزنا على النموذج الذي تنتمي إليه، فراحت الدراسة خارجة إلى بعض الجوانب التي لا بد لنا من تناولها، وكل هذا بعد الوصول إلى كونه ملحمة ذات طابع تاريخي أسطوري فكان هذا النص بمثابة دليل وإن كان إضافيا على كسر تلك النظرة الغربية المركزية التي تظن ظن السوء بكل الآداب على أن الأدب الغربي نموذج في ذلك يحتكم إليه، وقد حددت الإبداع بتلك الأحكام الأفلاطونية المثالية ونسي الطين أنه طين فراحت هذه الجماعة ولا تدري بذلك أنها حددت الإبداع ضمن جماعة واحدة ومعينة، وهو (الإبداع) يأبى إلا أن يكون ملكا لجميع الإنسان بل للعقل وليس لصاحب العقل، وقد وجدنا أن هذا النص كفيل بإثبات ذلك، فما بالك بنصوص أخرى وقد كان.

قائمة المصادر (المراجع):

- 1- أبو محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر ط 2.
- 2- إيرل ماينير (earl miner) : دراسات ثقافية بينية مقارنة، ترجمة الدكتور عبد القادر بوزيدة (مقال من مجلة قسم اللغة العربية جامعة الجزائر 2).
- 3 - عبد القادر بوزيدة : محاضرات في الأدب المقارن والأجناس الأدبية (في حلق الماجستير شعبة قضايا الأدب والدراسات النقدية والمقارنة 2013).
- 4 - سيرة الأميرة ذات الهممة وولدها عبد الوهاب. المجلد الأول طبعة إلكترونية من المكتبة الشعبية: [www.kotobarabia. Com](http://www.kotobarabia.Com)
- المجلدات 2 . 3 . 4 . 5 . 6 . 7 . طبعة بيروت.
- 5- نبيلة إبراهيم: سيرة الأميرة ذات الهممة دراسة مقارنة، المكتبة الأكاديمية مصر ط 1 1994.
- 6- يوسف إسماعيل: الرؤيا الشعبية في الخطاب الملحمي عند العرب.